بسم الله الرّحمن الرَّحيم

المحاضرة الرّابعة في البلاغة القرآنيّة / الدّواعي والمؤثّرات الّتي دعت العرب إلى التّأليف في البلاغة القرآنيّة

الإثنين ٢٠٢٠/١٢/٢٨م

أ.د. رحيم كريم عليّ الشَّريفيّ

في هذا المطلب سنحاول الحديث عن أهمّ الدواعي والأسباب والأهداف التي دعت العلماء العرب إلى التأليف في البلاغة العربيّة بشكل عام والبلاغة القرآنيّة بشكل خاصّ والخوض في الكتابة القرآنيّة ، ثمَّ الوقوف على أهمّ المؤثّرات التي كان لها أثرٌ في التأليف في البلاغة القرآنيّة .

ويبدو لنا أنَّ ثمة دواعيَ اقتضت هذه الممارسة في التأليف والتدوين في البلاغة القرآنيّة

الأوّل: خدمة كتاب الله تعالى وتبيان أسراره البلاغيّة

لايختلف اثنان أنَّ علوم العربية كلّها إن صوتًا وإن صرفًا وإن نحوًا وإن دلالة وإن فقهًا وإن علم كلام وغيرها كان هدفها خدمة القرآن الكريم وتبيان إعجازه وحقائقه وأسراره ومكنوناته ، ويبدو أنَّ هاته الوظيفة في رعاية القرآن الكريم وخدمته وتدبّر آياته قد أشار إليها القرآن الكريم في مواضع عدّة منها ، قوله تعالى : (كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدّبروا آياته وليتذكّر أولواْ الألباب) (سورة ص / ٢٩)، وقوله تعالى :(أفلا يتدبّرون القرآن أم على قلوب أقفالها)(سورة محمد /٢٤) .

ويبدو لنا أنَّ هذه الخدمة قد تجلّت في مسائلَ مهمّة تتعلّق بالقرآن الكريم قد خامرت عقول المتدبّرين بها ، فقد وجّه سؤال إلى أبي عبيدة معمر بن

المثنى (ت ٢٠٩هـ) عن التَّشبيه في قوله تعالى : (طلعها كأنَّه رءُوس الشَّياطينَ) (سورة الصَّافات / ٦٥) إذ رأى السَّائل أنَّ في الآية إشكالًا تمثّل في مخالفة المعهود من مقرّي التَّشبيه وهو الشرح والتبيين والتوضيح ذلك أن التشبيه في ذهن السامع حين يقاس الغائب على الحاضر أو المجهول على المعلوم أو غير المشاهد على المشاهد حتَّى تظهر الصورة وتتضح وتتبين والطرفانِ مجهولانِ ، فلا أحد رأى هاته الشَّجرة وكذلك الشيطان حتى تنعقد المشابهة ، فأجاب بما يفيد أنّ الله تعالى قد أجرى خطابه للعرب على حدّ ما يتعارفونه ممّا تنطق به ألسنتهم ويشيع في كلامهم ، فصورة المشبّه به معروفة بالتنفير والتقبيح والتخويف والتفزيع (١).

وقد أشار أبو هلال العسكريّ (ى٣٩٥هـ) إلى هذا الهدف السّامي فقال : ((اعلمْ - علّمك الله الخير ودلّك عليه وقيّضه لك وجعلك من أهله – أنّ أحقّ العلوم بالتّعلم وأولاها بالتّحفظ بعد المعرفة بالله تعالى جلّ ثناؤه علم البلاغة والفصاحة الذي به يعرف إعجاز كتاب الله تعالى الناطق بالحقّ الهادي إلى سبيل الرّشد ، المدلول به على صدق الرسالة وصحّة النّبوّة التي رفعت أعلام الحقّ وأقامت منار الدِّين...وقد علمنا أنّ الإنسان إذا أغفل علم العربيّة وأخلَّ بمعرفة الفصاحة لم يقع علمه بإعجاز القرآن من جهة ماخصّه الله به من حسن التأليف وبراعة التّركيب وما شحنه من الإيجاز البديع والاختصار اللّطيف وضمّنه من الحلاوة وجلّله من رونق الطلاوة مع سهولة كَلِمه وجزالتها وعذوبتها وسلاستها إلى غير ذلك من محاسنه التي عجز الخلقُ عنها وتحيّرت عقولها فيها))(٢).

الثاني : تعلّم المسائل البلاغيّة والمباحث البيانيّة القرآنيّة

من الدواعي والأهداف التي دعت المشتغلين في التأليف في البلاغة القرآنيّة الهدف التّعليميّ القائم على تعلّم المسائل البلاغيّة وتذوقها فضلًا عن الوقوف على المباحث البيانيّة القرآنيّة .

ولايخفى أن الابتعاد عن البلاغة وتذوقها ولاسيّما بعد أن شاع الفساد اللُّغويّ وكثرة اللَّحْن أن ظهرت الحاجة وتجلّت الرَّغبة في فهم القرآن الكريم في ظلّ الغوص في بيانيّته المعجزة والوقوف على نَظْمه المعْجِز والنظر الباصر في

ألفاظه المختارة المعجزة وانتظامها في نسقٍ عجيب من الاتساق والانسجام والترتيب ؛ لأنَّها السبيل المستقيم والمنهج السديد في التعبير الجيّد واصطفاء الألفاظ الفصحى وممارسة النَّظم الرائق وإنشاء الكلام البليغ فكلّها تمتح من الأسلوب القرآنيّ المعجز والنَّظم البيانيّ المعجز.

وقد فطن الدكتور عبد المحسن القيسيّ لهذا الهدف السامي قال : ((وما أن تأسست هذه العلوم حتّى استقلّت وتغيّرت وظيفتها وأصبحت مسألة فهم عموم القرآن الكريم تحظى باهتمام ثانويّ، فقد انتقل النحو مثلًا من مهمة ضوابط يسيرة يقيم بها المعربون ألسنتهم بعد أن ضاعت السَّليقة العربيّة إلى علم دقيق معقّد ومتطوّر يدرس لذاته فلم يعدّ يقتصر على كونه أداة لصون العربيّة من اللّحْن والزلل ، بينما انتقلت البلاغة لدراسة الفصاحة ...وهي مهمة كانت محصّلتها صيانة العربيّة لصيانة التَّواصُل مع القرآن الكريم وفَهْمه)) (٣).

الثالث : الممارسة النقديّة الإعجازيّة

من الأهداف والدّواعي التي حدت بالمشتغلين في التأليف في الحقل البلاغيّ القرآنيّ هي الممارسة النقديّة الإعجازيّة ، وهو ما يصطلح عليه بالهدف النقديّ الإعجازيّ ، فقد مارس علماء الإعجاز هاته الحركة الإعجازية النقديّة للنصّ القرآنيّ ؛ من أجل تبيان إعجازيّة القرآن الكريم وتفوّق نَظْمه المعجز على سائر النُّظوم ، وتكشيف جماليته الإعجازيّة وتمييز نسقه المعجز بإزاء بقية الأنساق والنظوم والتأليفات الأخرى.

وهذا ماتلمسناه في أكثر المدونات البلاغيّة القرآنيّة ، إذ نجد أنَّ مؤلفيها يعقدون الموازنات والمقارنات في بياناتهم التحليليّة البلاغيّة عند النَّظر في النصوص القرآنيّة مع غيرها من النصوص البيانية البشريّة إن شعريةً وإن نثريةً، - وبغض النظر عن صحة تلك المقارنات وممارستها – رغبةً منهم في إجراء ممارسة نقدية دقيقة باصرة لتبيان إعجازيَّة النصّ القرآنيّ وسمّوه وعلوه إن ألفاظًا وإن نَظْمًا وإن بناءً وإن تصويرًا على غيره من النّصوص ، وهذا ما يمكن أن نطلق عليه ب (المنهج الاستبداليّ في الدَّرس البلاغيّ الإعجازيّ) ، وهو أن يقوم المؤلِّف

في الإعجاز القرآنيّ بتخيّل لفظة تحلّ محل لفظة قرآنيّة أو تخيّل جملة تحلّ جملة قرآنيّة أو آية متخيّلة محلّ آية قرآنيّة ، فيتسأل في ضوء المناظرة المتخيلة : ما الذي يحدث لو حصل هذا الاستبدال ؟ فيجيب من فوره أنه مداعاة إلى ذهاب الرّونق وسقوط البلاغة ، ومن هاته الممارسات النقديّة الإعجازيّة ما رصدناه من قول الخطَّابيّ قال : ((ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجتمع لها هذه الصّفات هو وضع كلّ نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخصّ الأشكل به الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه : إما تبدّل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام وإمّا ذهاب الرّونق الذي يكون معه سقوط البلاغة)) (١).

وقال الرمّانيّ (ت٣٨٦هـ) في معرض حديثه عن قوله تعالى : ((ولكم في القصاص حياة)) (سورة البقرة / ١٧٩) : ((وهذا الضرب من الإيجاز في القرآن كثير وقد استحسن الناس من الإيجاز قولهم : القتل أنفى للقتل ، وبينه وبين لفظ القرآن تفاوت في البلاغة والإيجاز وذلك يظهر من أربعة أوجه : إنه أكثر في الفائدة وأوجز في العبارة وأبعد من الكلفة بتكرير الجملة وأحسن تأليفًا بالحروف المتلائمة)) (٢) .

وقال عبد القاهر الجرجانيّ (٤٧١هـ) في تحليل قوله تعالى : ((وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي وغيض المآء وقضي الأمر واستوت على الجوديّ وقيل بعدًا للقوم الظَّالمينَ)) (سورة هود / ٤٤) : ((هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت ، لأدّت من الفصاحة ما تؤدّيه وهي في مكانها من الآية ؟)) (٣) .

المؤثّرات التي أثّرت في التّدوين في البلاغة القرآنيّ

في هذا المطلب سنجلي الكلام عن أهمّ المؤثّرات التي كان لها أثر في التَّدوين في البلاغة القرآنيّة ، ومنها:

الأوّل : القرآن الكريم

لاجَـرَمَ أنّ نـزول القـرآن الكـريم أهـمّ حـدث في تـاريخ الشـعوب العربيّـة والعربيّـة الإسـلاميّة فيمـا بعـد ، فقـد غـدا ((القـرآن قطـب الرّحى الـذي تـدور حولـه مختلـف المجهـودات الفكريّـة والعقائديّـة للمسـلمينَ ....فسـتقوم حـول القـرآن ومنـه حركـة نشـيطة تتصـل بجملـة المشـاكل التي طرحهـا قبـل مجيئـه في ذلـك الوقـت المبكـر ، وسـيكون الأصـل في تبلـور العديـد مـن العلـوم الإسـلاميّة التي نعرفهـا اليـوم)) (٤).

مـن هنـا فـإنّ القـرآن الكـريم كـان ذا أثـر عظـيم في البلاغـة ن وقـد شـغل النـاس بـه وأخـذوا يتدارسـونه ويوضـحون معانيـه ويتحـدثون عـن ألفاظـه وتراكيبـه ومـا فيـه مـن فنـون وقـف العـرب أمامهـا مبهـورين وكانـت البلاغـة مـن العلـوم التي أولوهـا عنايـة كبيـرة وجعلوهـا ((أحـق العلـوم بـالتعلّم ،وأولاهـا بـالتّحفظ – بعـد معرفـة الله جـلّ ثنـاؤه - ؛ لأنّ الإنسـان إذا أغفـل علـم البلاغـة وأخـلَّ بمعرفـة الفصـاحة لـم يقـع علمـه بإعجـاز القـرآن مـن جهـة مـا خصَّـه الله بـه مـن حسـن التأليف وبراعة التركيب وما شحنه من الإيجاز البديع)) (٥).

ويـرى ابـن خلـدون (ت٨٠٨هـ) أنَّ ثمـرة علـم البلاغـة هي في فهـم الإعجـاز مـن القـرآن ؛ لأنَّ إعجـازه في وفـاء الدَّلالـة منـه بجميـع مقتضـيات الأحـوال منطوقـة ومفهومـة ن وهي أعلى مراتـب الكـلام مـع الكمـال فيمـا يخـتصّ بالألفـاظ في انتقائهـا وجودة رصفها ، وهذا هو الإعجاز الذي تقصر الأفهام عن إدراكه)) (٦).

وممّـا يتصـل بـالقرآن الكـريم نشـوء ممارسـات بيانيّـة لهـا صـلة وثقى ورابطـة مسيسـة بالدراسـات البلاغيّـة ككتـب إعجـاز القـرآن الكـريم وكتـب معـاني القـرآن وكتـب غريـب القـرآن وكتـب مجـاز القـرآن وكتـب تأويـل القـرآن وكتـب مشـكل القـرآن وكتـب علـوم القـرآن وغيرهـا ، وهي تمثّـل مـداخل معرفيّـة وتشـابكًا بينيًّـا ؛ مـن أجـل تبيان بيانيّة النص القرآنيّ المعجزة والكشف عن بلاغته المعجزة .

ومـن أهـمّ كتـب إعجـاز القـرآن (النُّكـت في إعجـاز القـرآن) للرمَّـانيّ (ت ٣٨٦هـ) و(البيـان في إعجـاز القـرآن) للخطّـابيّ (ت٣٨٨هـ) ، و(إعجـاز القـرآن) للباقلانيّ (ت ٤٠٣هـ) و(دلائل الإعجاز في علم المعاني) لعبد القاهر

الجرجـانيّ (٤٧١هـ) ، و(إعجـاز القـرآن والبلاغـة النبويّـة) لمصـطفى صـادق الرافعيّ و (النّبأ العظيم) لمحمد عبد الله ادراز.

ومـن كتـب معـاني القـرآن كتـاب (معـاني القـرآن) للفـرّاء (ت٢٠٧هـ) ، و(معـاني القـرآن) للأخفـش الأوسـط (ت ٢١٠هـ) و(معـاني القـرآن وإعرابـه) للزَّجّـاج (ت٣١٥هـ)، ومـن كتـب تأويـل مشـكل القـرآن كتـاب (تأويـل مشـكل القـرآن) لابـن قتيبـة الـدَّينوريّ (٢٨٦هـ) ، ومـن كتـب مجـاز القـرآن كتـاب (مجـاز القـرآن) لابـي عبيـدة بـن معمـر التيمـيّ (٢٠٩هـ) وكتـاب (تلخـيص البيـان في مجـازات القـرآن) للشريف الرضيّ (ت ٤٠٦هـ) .

ومـن كتـب غريـب القـرآن كتـاب (مفـردات ألفـاظ القـرآن) للراغـب الأصـفهانيّ (ت٥٠٢هـ) ، و(ألفيـة العراقـيّ في شـرح غريـب القـرآن) لـزين الـدّين العراقيّ(ت ٨٠٦هـ) .

وغيرهـا مـن الكتـب حـول القـرآن الكـريم ونظمـه وسـوره وأسـلوبه والوجـوه الكثيرة التي تدلّ على ربّانيّة مصدره وعظمة إعجازه .

وَالحَمدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ